في المقعد ما قبل الأخير

حنين أبو غيث

كانت طفولتي –التي أطلقت عليها تسمية «الأيّام الوردية» حين كبرت– من أجمل أيام حياتي، فمن أيّام المدرسة بدأت انطلاقتي نحو الحياة.

في صفّ البستان؛ أذكر أنّني كنت الطفلة المدلّلة المحبوبة من قبل معلّمتي، ويعود سببُ ذلك إلى أنّ أمّي تعمل في المدرسة ذاتها، فكانت المعلمة تبقيني جانبها وتساعدني في كلّ شيء، ولا أذكر أنّني بكيت عندما بدأت الدراسة.

كانت أيّاماً لم أعرف فيها سوى اللّعب وتلقّي الاهتمام، كبرت وأصبحت طالبةً في الصفّ التمهيدي، وكان يلازمني نفس الشعور، لم أبكِ، وكنت أعرف معلّمتي لأنها صديقة أمي وأراها معها دائماً، كنت الطفلة النشيطة، واعتدتُ الجلوس في المقعد الأماميّ دائماً.

طوال فترة دراستي من الصفّ الأول إلى الثامن، التي قضيتها في مدرسة تعمل فيها أمّي، كنت دائماً في المقعد الأماميّ، ومتميّزة في كلّ المجالات، ومنها الإذاعة المدرسيّة؛ فكنت أقف وألقي الحِكَم والأشعار.

خلال فترات حياتي المتعاقبة التي قضيتها بجانب أمّي، تلك التي دعمتني في كلّ شيء، لم أشعر بالظلم، أو انعدام الأمان، ولم تعاقبني أيّ معلّمة، وكنت أنظر للحياة وكأنّها ستعطيني كل شيء، وبإمكاني فيها امتلاك كل شيء؛ فقط لأنّ أمي بجانبي.

مضت الأعوام، وجاء اليوم الذي يجب أن أنتقل فيه من مدرستي إلى مدرسة أخرى، كنت في البداية متشجعة ومتحمسة لأنني سألتحق بالمدرسة مع أخواتي اللاتي يكبرنني سنّاً، ولم أكن مع أمي، ولأنّني سأبرز شخصيّتي.

وعندما ذهبت إلى المدرسة التي لم يعرفني فيها أحد؛ لا المعلّمات ولا المديرة، شعرتُ بالضيق قليلاً، وبخاصة حين أجلسوني في المقعد ما قبل الأخير، وأنا لم أكن معتادة إلّا على المقاعد الأولى، رغم انزعاجي، إلّا أنّ ذلك كان الدافع الأول لإبراز شخصيّتي، ولأحظى باهتمامهم، فبذلتُ جهداً أكبر بالدراسة.

كان معدّلي في المدرسة التي تعمل فيها أمّي لا يتجاوز 80%، ولكن بدأت بالدراسة أكثر لأنني أيقنت أن الصفوف الأكبر تحتاج ذلك، كنت أدرس كثيراً؛ وبخاصة مادة الرياضيات التي لا أحبّها، كنت أقرأ دفاتر أختي لأرى كيف تحلّ المسائل وأكتب الإجابة أكثر من مرّة حتى أحفظها، إلى أن اعتدت على الحفظ، ومرّة على مرّة بدأت أفهم، وأحضّر الدروس مسبقاً لأثبت نفسي، وهذا ما حصل فعلاً، فتحوّلت من فتاة متوسطة المستوى إلى واحدة من المتميّزات اللاتي تحبّ المعلّمات سماع أصواتهنّ في الحصّة.

حان وقت الامتحانات النهائيّة، وحينها وقفتُ على آخر المحطة لأرى ثمرة جهدي، وحصلتُ على المرتبة الثالثة في الصفّ بمعدل 90.2%، كانت أوّل مرّة أحصل فيها على معدّل يتجاوز 90%، كنتُ فخورة بنفسي وسعيدة بأنّي تحدّيتُ نفسي وكلّ من حولي.

ابتداءً من الصفّ العاشر إلى «التوجيهي»؛ مررتُ بتحدّ كبير مع الطالبات «الأشطر» منّي، كنت أضعهنّ أمام عينيّ، وأحاول تخطّيها بدرجة إلى الأمام، خصوصاً في الرياضيات، التي لم أحبها، ولكن دفعتني غيرتي من أيّ طالبةٍ متفوقة أكثر منّي، إلى أن أدرس بجهدٍ أكبر، فلم تكن غيرتي مرضيّة؛ بالعكس غيرتي هي التي دفعتني لأحصل أكثر وأصل إلى ما أريد في مسيرتي التعليمية.

اخترتُ الالتحاق بالفرع العلميّ ولقيتُ تشجيعاً من معلّماتي، بدأتُ الصفّ الحادي عشر بحماس، إلا أنّني فوجئت بمعلّمة الفيزياء، فهي عصبيّة وشرحها غير مفهوم بالنسبة لي، واجهتُ صعوبةً بالغة مع مادّة الفيزياء، بذلتُ جهداً إلى أن تحسّنتُ قليلاً، ولكن ليس كفاية، فتراجع معدّلي كثيراً.

خفتُ من عدم النجاح في الفيزياء اذا استكملت صفّ التوجيهي في الفرع العلميّ، ما جعلني أحوّل إلى الفرع الأدبيّ ... لم يكن سهلاً دون جهد، ولكنّي- بدعم أهلي ومن حولي- رأيتُ حلم الدراسة الجامعيّة أمام عينيّ، وحصلتُ على معدّل 82.5%، كانت أياماً جميلة جداً أكثرها تحدٍّ وإصرار.

وجاءت الحياة المختلفة تماماً عن المدرسة وهي حياة الجامعة، بدأت أفكر بتخصص لأدرسه، ورغبتُ بدراسة الإدارة، ولكنّ أبي اعترض، فالتحقتُ بتخصّص علم النفس، رغم أنّي لم أكن أعرف ما الذي يعنيه، ولكن أردتُ أن أكون بقرب ابنة عمي التي اختارت التخصص ذاته.

عَنت الجامعة ملابس أنيقة، ومطاعم، والجلوس في أروقة الجامعة برفقة الصديقات، فقضيتها كذلك، ولم أدرس إلّا يوم الامتحان، ولكنّي في المحصّلة كنت أحصل على درجات لا بأس بها؛ فبدأت أفهم الحياة وأتوسع في منظوري للعلم والدراسة، والأهم من ذلك؛ بدأت أعرف ماهيّة علم النفس.

خلال السنوات الأربع، عرفت الحياة عبر تخصص علم النفس، وعرفت من هم البشر وكيف يفكرون، وما هي سمات الشخصية، وكل ما يخصّ المجتمع، فكانت أياماً رائعة، لم تخلُ من الضغط والجديّة، بالذات في الفصل الرابع خلال التحضير لمشروع تخرّجي حول أزمة الهويّة لدى المراهقين ذوي الإعاقة السمعيّة، وحصلتُ على علامة امتياز.

تعلّمت من كلّ تلك المراحل كثيراً، بدأت الحياة تعطيني الأنوار لأنير بها طريقي وأحاول الوصول إلى ما أريد؛ أنهيت دراستي لدرجة البكالوريوس في 2013/1/15، وفي اليوم التالي بدأتُ بالبحث عن وظيفة، أردتُ جمع المال والاعتماد على نفسي أكثر، لم يمرّ أسبوعٌ قبل أن أحصل على وظيفتي الأولى في جمعيّة الياسمين كمعلّمة تأهيل.

حين تعرّفتُ على عمل الجمعية؛ لفت انتباهي الأطفال المصابون بالتوحّد، ورغبتُ في العملِ معهم، ولكنّ المديرة اختارت لي أن أعمل مع الأطفال المصابين بالشلل، واعترضت على طلبي المتكرّر بأن أحاول، كونهم يحتاجون إلى متخصصين.

حاولتُ مراراً، إلى أن منحتني المديرة فرصةً للعملِ معهم لمدّة شهر كامل، على أن أعود إلى الصفّ السابق في حال فشلتُ في أن يعتادوا عليّ؛ عملتُ معهم باتّجاهيْ الضبط والتعلّم، ووجدتُ العمل صعباً جداً، ولكنّي لم أستسلم، واستطعتُ

أطفال روضة بيت دقو في لقاء ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة- الذي ينظمه برنامج البحث والتطوير التربوي، 2016.

في الأيام الأخيرة من الشهر أن أجد طريقةً لضبط الصف والتواصل مع الأطفال، فكانت تجربة جديدة وممتعة وتعلّمت منها الكثير.

في بداية 2014 قمت بالتسجيل لدرجة الماجستير في الإرشاد النفسيّ والتربويّ، التي كانت من الأحلام التي كنت أطمح لتحقيقها، كان وقتي مقسماً بين الدراسة والعمل، وكانت أياماً شاقة، وبخاصة أن متطلبات الماجستير كثيرة، من الدراسات والمقالات والأبحاث والامتحانات، ولم أكن أعرف ماذا أفعل في البداية؛ هل أترك العمل أم انسحب من الجامعة؟

لم أكن معتادة على سهر الليالي للدارسة، وأن أقوم بإعداد الكمّ الهائل من الأبحاث، ومجدداً كان دعم أهلي ذا جدوى كبيرة، ساعدوني إلى أن أتممتُ عملي، وكانت مرحلة الماجستير رائعة، فشعرت أنّ الماجستير منحني ما كنت أريد معرفته في فترة البكالوريوس، وبخاصة مواد علم نفس المثليين جنسيّاً، والإكلينيكي، وعلم نفس النمو، وغيرها.

اجتزتُ الفصل الأوّل بنجاح، وبمعدّلات عالية لم أكن أتوقعها، وكانت فرحتي لا توصف، ثمّ بدأت الفصل الثاني الذي تضمّن التدريب الميدانيّ، فاضطررتُ للاستقالة من عملي لأجد وقتاً للتدريب، وتذكرت أنّ صديقتي أخبرتني بأنّ مدرسة العودة تحتاج مرشدةً، فتقدّمتُ للوظيفة وقضيتُ فترة التدريب الميدانيّ في المكان نفسه.

لم يكن لديّ خبرة في العمل في المدارس، ولكن كانت تجربة مميزة استطعت فيها أن أكسب الطلبة لجانبي، من خلال طريقة كلامي وتميزي في الوقت نفسه؛ فالمرشدة يجب أن يكون لديها صفات مميزة يستطيع الطلبة من خلالها التقرب لها والحديث معها.

وعلى الرغم من أنّ فترة الماجستير اقتصرت على الدراسة والأبحاث، وانقطعت فيها عن الحياة الاجتماعية قليلاً لأستطيع الحصول على ما أريد، فإنّني وصلتُ إلى مرحلة تقديم رسالة الماجستير، بعنوان «الصدمة النفسية لدى العاملين والمعالجين في المهن الصحية في أعقاب حرب غزة 2014».

واجهت صعوبات عدة، وبخاصة في التعامل مع الناس وقلة الدراسات والكتب التي تحدثت عن الصدمة النفسية وحرب غزة 2014، ولكن استطعت اجتياز المرحلة الصعبة بامتياز وفي وقت قياسيّ، وتمت مناقشة رسالتي بنجاح.

وأسعى حالياً إلى أن أتوسّع في مجال عملي بشكل أكبر، وأن أظهر امتيازي الذي تعبت للحصول عليه، وأيضاً لأن أقوم بعمل دورات توعوية.

تلك نبذة بسيطة عن حياتي، أرجعتني إلى أيام كانت جميلة وستبقى ذكرى جميلة.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة/ العيزرية

أطفال روضة بيت دقو خلال نشاط ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة، 2016.